فاوست بين الحقيقة التاريخية والخيال الأدبي

عمار رجال
قسم اللغة العربية و آدابها
جامعة باجي مختار-عنابة

ملخص

تمثل شخصية "فاوست" في صورتها الحقيقية أو في صورتها الخيالية الخرافية، مادة نموذجية لبدايات العهد الأوروبي الحديث الذي بات يؤمن بمبدأ الفردية ومن جهة، ويؤسس -من جهة أخرى- لحوار لا مفر منه مع موقف كنيسة القرون الوسطى، والمتطلبات الراهنة التي فرضتها التطورات الاقتصادية والعلمية، دون نسيان القراءات الجديدة للحضارات القديمة وعليه كان جديرا بنا تتبع حياة "فاوست" الحقيقي التاريخي التي ستكشف حقا عن حقائق مثيرة لإنسان القرون الوسطى وبداية عصر النهضة.

Résumé

Le personnage de Faust est, aussi bien dans sa réalité historique que dans ses représentations, un produit typique du début des temps modernes, qui voit se constituer en Europe la notion de l'individualisme, et s'articuler le débat inévitable entre la vision du monde qui prévalait dans la chrétienté médiévale et les exigences nouvelles nourries par l'essor de l'économie et des sciences ainsi que la redécouverte des civilisations antiques. C'est là que Faust, réel et imaginaire, se présente comme témoin des grands changements à la fin du moyen âge et du début de la renaissance.

شغل "فاوست" الكتاب والأدباء ورجال الدين والعلم... وصار أسطورة تتنافس في سبر أغوارها وتحليل أبعادها أقلام عدّة، في لغات مختلفة، عبر قرون طويلة. كما أثير جدل كبير حول هذه الشخصية، حيث تضاربت بشأن حقيقتها الآراء والمواقف، كما كان للشك نصيب في نسج خيوطها وكشف تاريخها، وللخيال دور في ذيوعها وشهرتها. وربما كان للأدباء النصيب الأوفر في الاهتمام بهذه الشخصية والوقوف عندها مليا، للاستلهام منها طورا، وتوظيفها بغرض تمرير أفكارهم تارة أخرى. فكان من الطبيعي بعد هذا كله أن نقف عند حياة "فاوست"

و تاريخه، قصد فهمه فهما صحيحا، إذ كيف يستطيع الإنسان أن يعرّف بعالِم أجنبي أو أديب. تعريفا واضحا أو شبه واضح، لاسيما إذا كان الناس غربا عن هذا العالم أو الأديب. بقدر ما هو غريب عنهم ؟. أظن أن أفضل ما يفعل في هذا المجال، هو أن يقدم صورة بيوغرافية له، أو ترجمة حياته لأنها شيء لابد منه[1]. ولا يجب أن نقلل في هذا الشأن من نظرية "سانت بوف" Saint Beuve التي تؤكد على أن أفضل وأضمن وسيلة للبحث وللحكم على كاتب أو رجل هو الاهتمام البالغ بحياته والاستماع إليه ولمدة طويلة[2].

فاوست التاريخي :

إن المعلومات التاريخية عن "فاوست" شحيحة ومتضاربة، وبالعودة إلى القرن السادس عشر، حيث عاش معظم سنواته، نقف عند أخبار أختصرها الباحثون في التأكيد على حقيقة أن هذه الشخصية عاشت بالفعل في ألمانيا، ليقولوا بعدها إن "فاوست" كان ساحرا، ومنجما، وطبيبا، يحصل على رزقه من التجول وادعاء العلم والإتيان بالمعجزات، فقد استطاع أن يستميل حبّ وإعجاب الجماهير بخاصة الطلبة منهم، وكان في أغلب الأحيان مضطهدا ومطاردا من قبل الشرطة بفعل نصبه واحتياله، جنت عليه سلوكاته الشاذة وقادته إلى ذلك المصير المأساوي بعد تحالفه مع الشيطان[3].

يفرض علينا "فاوست"، باعتباره صلب موضوعنا وجوهره، اعتماد الدقة والموضوعية والمصداقية في كل ما نقوله وندونه، وعليه ارتأينا تصنيف ما ورد من معلومات وشهادات إلى مستويات بحسب خصوصية كل واحد منها.

1 – الشهادات الأولى:

اختلفت الآراء بشأن مولد "فاوست" وموطنه، حيث قيل إنه ولد في أواخر القرن الخامس عشر، وتوفى على الأرجح في سنة 1543. أما مكان مولده فتضاربت الشهادات بين مدن ألمانية كثيرة منها: "كاندلنج" Kundling، و"رودا" Roda، و"سوندوادل" Sondwedel، و"هيدلبرغ" Heidelberg، و"كولونيا" Cologne،

وهناك شبه إجماع بأنه درس السحر بجامعة "كراكوفيا" Cracovie، وهي من الجامعات القليلة التي اشتهرت بتدريس هذا العلم في أوروبا[4].

يجعلنا تتبع سيرة "فاوست" نقف أمام شخصية غريبة الأطوار، متميزة التفكير، مثيرة للجدل، هي أقرب للخيال من الواقع.

وجاءت أول شهادة تاريخية عن "فاوست" من قبل جماعة إنسانيين Humanistes التقت به وعرفته عن كثب، وكم أفزعها هول ما كان يقوم به من سلوكات شاذة، وما كان يعلنه من تطلعات رهيبة مخيفة، وعليه لم تتوان الجماعة من إصدار أحكام جد قاسية بشأنه[5].

أما أول وثيقة ذكرته، هي رسالة طويلة كتبها قس مدينة "سبونهيم" Sponheim الألمانية المدعو "يوهن ترتهيم" Johan Tritheim بتاريخ 20 أغسطس من عام 1507 إلى صديقة العالم الرياضي والفلكي "يوهن فردونج" Johan Virdung يخبره فيها عن "فاوست" ((إن هذا الرجل الذي كتبت إلي بشأنه، هو المدعو "جورج سابليكوس" Sabelicus الذي تجاسر فادعى أنه أول العرافين، وهو متشرد، متنفج، وكاتب جوّال، يستحق أن يجلد من أجل أن يشفى من ولعه بالإعلان عن أمور رهيبة مخالفة للكتاب المقدس. إن الألقاب التي ينتحلها لنفسه هي الدليل على عقل أبله مختل، ومدع وليس فيلسوفا. فهذه هي الألقاب التي يتخذها لنفسه : المعلم "جيورجيوس سابليكوس" Georgius Sabelicus، و"فاوستوس الأصغر" Faustus Junior، ينبوع العرافة، فلكي، ساحر بارع، وقارئ موفق، ومتكهن بأمور الزراعة، ومتكهن بالنار، وحصيف في السحر المائي. فانظر إلى حماقة هذا الرجل الحمقاء، وإلى أي درجة من الجنون بلغ. إنه يزعم إنه ينبوع العرافة، مع أنه في الواقع يجهل كل العلوم الحقيقية، ولهذا كان الأحرى به أن يلقب نفسه "مهرج" لا معلم))[6] .

وتتفق شهادة هذا القس مع شهادات أخرى، تفيد بأن الغرور بلغ بفاوست حدّ ادعاء القدرة على إعادة تشكيل مؤلفات أفلاطون وأرسطو لو حدث أن ضاعت وامحت من عقول الناس.. كما كان له بمدينتي "فورتسبورج" Wurzbourg،

و"كرويستناخ" Kreuznach حضورا متميزا أعلن من خلاله في جسارة لا متناهية قدرته على إحياء معجزات المسيح. وحدث بهذه المدينة أن خلت من وظيفة مدرس، فعين بها، لكن ثبت عليه بد قليل اتهام بتورطه في أبشع أعمال الفجور، وعليه تم نفيه[7].

وتوالت الشهادات ، إذ بتاريخ 12 فيفري 1520 توسل له أمير وقس مدينة "بامبرغ" Bamberg الألمانية أن يقرا له طالعه. وصدر بتاريخ 17 جوان 1528 حكم بقضي بطرده من مدينة "إنقولشخت" Ingolstadt نتيجة ممارساته المشبوهة، ثم حكم آخر يقضي بأن مجلس مدينة "نيرمبارج" Nuremberg يرفض كلية أية مساعدة للدكتور "فاوستوس" باعتباره دجّالا محتالا خطيرا[8]. وتليها شهادة تفيد بأنه أقام مطولا في "أرفورت" Erfurt، وأظهر فيها من الخوارق والتهاويل الكثير، حتى إنه استطاع بدعاواه أن يحصل على منصب محاضر عام بجامعتها[9]. ولا يخفى أن مصدر هذه الشهادات والأحكام قساوسة ورجال دين مسيحيين من القرون الوسطى كانوا يرون أنّ أيّ تفكير غير مألوف في عرفهم سحر وزندقة وإلحاد.. وقد يكون فاوست من ذلك الصنف.

2 – شهادة "لوتر"وأتباعه:

أثار فاوست اهتمام رجال الدين الإصلاحيين في ألمانيا بزعامة القس "لوتر" خلال القرن السادس عشر، فعملوا على رصد خطواته، بهدف التصدي له، حتى لا ينال من نضالهم في إصلاح الكنيسة ومحاربة الفساد، فهم ((أحسوا بحق، أن تلك الأشياء الجميلة التي أغرت فاوست لم تكن إنجيلية، وأنها وثنية وبابوية))[10]، فهذا كاهن مدينة "قوطة" Gotha المدعو "موتيانوس روفس" Mutianus Rufus يكتب بتاريخ 09 أكتوبر 1513 بأن فاوست ظهر بمدينة "أورفت" Erfurt ، وكم ضاق به ذرعا مقيموا الفندق جراء ما كان يدعيه أمامهم من خرافات ومعجزات، زاعما نفسه نصف إله، ولكنه في واقع الحال، به مس من الجنون وكثير من الغرور[11]. ولعل شهادة "ملا نختون" Melanchton، أشهر أتباع لوتر، تزيح الكثير من الشكوك حول حقيقة فاوست، حيث دوّن في كتابه "تفاسير الإنجيل" بأنه تعرف على

فاوست شخصيا بحكم أنهما ينحدران من مدينة واحدة هي "كوندلنج" Kundling، درس بكراكوفيا وتعلم بها السحر، كان متشردا، مغامرا، سريع الانحراف، كان دوما بصحبة شيطان (في شكل كلب) يسهر على خدمته، وهذا دليل على نظرة رجال الدين المسيحيين الخرافية لفاوست. ومن أغرب ما ورد في هذه الشهادة هو محاولة فاوست، بمدينة البندقية Venise، التهام ساحر كان ينافسه في مسائل مختلفة، كما ادعى بأن له القدرة على الطيران في الهواء، إذ مكنه من ذلك قليلا شيطانه، تم تركه يسقط أرضا، ونجا من الموت بأعجوبة[12]. ومن أكثر الشهادات مصداقية ما سجله "لوتر" نفسه عن فاوست، إذ جاء في أحاديثه: ((إن فاوست هذا له أن يصنع ما يشاء، لكنه في النهاية سيدفع الثمن غاليا. فليس هو إلا شيطانا متعجرفا مغرورا طموحا، يريد الحصول على الجاه في هذه الدنيا، رغم الله وكلامه، وعلى حساب ضميره وجاره، لكن من لا يريد البقاء ما عليه إلا أن يذهب مباشرة إلى الشيطان))[13].

تضاف شهادة أخرى لأحد أصدقاء "ملانختون" يدعى "بوتنر" Butner تعود إلى تاريخ 1576 تؤكد بأن فاوست كان يُظهر من الخوارق والتهاويل الكثير، منها قدرته على انتحال شخصيات معروفة كأبطال إلياذة هوميروس من مثل هكتور Hector وأوليس Ulysse والحسناء هيلينا Heleine وغيرهم كهرقل Hercule وشمشون Samson وداوود DAVID أمام دهشة الحاضرين[14].

إن تاريخ فاوست ليس غاية في حد ذاتها، بل هو وسيلة لفهم هذا "الرجل" والوقوف عند الدوافع الحقيقية لسلوكاته الغريبة، بل لتمرده على كل ما يعوقه ويحجمه، ويصبح شاغله الشاغل أن يكشف غموض كل شيء، يبحث عن جديد، ويطأ أرضا غير التي وطأها، ويرى ما لم يره بعد حتى ليحب أن يجرب كل شيء[15]. إن كل ما يقوم به فاوست من عمل تسري فيه أنفاس القرن السادس عشر، وتنعكس فيه روح الإنسان الذي بدأ يبحث ويسأل ويشتاق للمعرفة، ويخرج شيئا فشيئا من كهف الطمأنينة اللاهوتية، محاولا إشباع هذا الشوق بكل وسائل السحر والعلم والتنجيم[16]. فرغبته الجامحة في خروج "الأنا" عن الحدود التي

رسمت لها، واندفاعه وراء "مغامرة المعرفة والتطلع" .. كلها عوامل مكنته من التفوق على خصومه، فها هو في فصل شتاء، بمناسبة حفلة دينية، تمكن من إحضار شجرة كرم محملة بعناقيد العنب الناضج، فوجه بذلك ضربة قاسية للمشككين في قدراته وللمستهزئين بمعجزاته، ولم ينج من انتقامه حتى أولئك الذين أرادوا به خيرا، إذ قيل عنه بأنه أسكن شيطانا ببيت رجل صالح حاول إنقاذه مما هو فيه[17].

من هنا يتضح لنا كم هو مهم تاريخ "فاوست"، إنه يكشف لنا عن روح ذلك العصر، الذي فقد فيه الإنسان راحته وطمأنينته، وضاع في غياهب الشك، يبحث عن ذاته؛ تائها بين إيمان مضطرب وأفكار جديدة، وشوق عارم للإجابة عن أسئلة ظلت تؤرقه: هل يستطيع الإنسان أن يرى كيف تسير النجوم بنظام، وكيف يرتبط كل شيء في الكون بكل شيء، وكيف تسري عليه قوانين الحياة كما تسري على سائر الموجودات.. فالإنسان من قديم الزمان حريص على الخلود، كلف بمصارعة الزمان، يريد جهد استطاعته، أن يؤكد ذاته وسط سيله الجارف[18].

موت "فاوست" :

قضى "فاوست" حياته متمردا على القوانين والأعراف والأخلاق تاركا العنان لشهواته ودوافعه وطموحاته.. ليس بغرض تحقيق الثروة أو المتعة، بل سعيا وراء المعرفة، لم يتردد قط في توظيف كل الوسائل الممكنة تحقيقا لأهدافه، إلى أن بلغ به الأمر اللجوء إلى الشخص الوحيد الذي وعده بالإجابة على أسئلته: إنه الشيطان الذي تحالف معه، بعد أن باع له نفسه، شريطة إشباع كل طلباته ورغباته، حسب ما ذهب إليه معاصروه من مفكري القرون الوسطى.

وصل "فاوست"، بعد رحلة طويلة مع شيطانه إلى قناعة بأن العمل ليس بأخ للحلم، وإنه لم يفهم القول المأثور فهما صحيحا إيجابيا: ((إن من يأتي إلى الدنيا دون أن يترك فيها أثرا لا هو بمن يطاق ولا بمن يستحق أن يلتفت إليه))[19]. وبالتالي ندم على كل شيء، وتمكن منه اليأس والقلق، وأدرك جزاء أعماله "الغريبة" وما ينتظره في الجحيم من ألوان العذاب، إذ في يوم وعلى غير العادة بدا

حزينا، حتى أن خادم الفندق الذي يقيم فيه بمدينة "ويتمبرج" Wurtemberg انتبه لحاله وسأله عن الأمر، ولم يكن من "فاوست" إلا أن توسل إليه بألا يفزع من هول ما سيقع في تلك الليلة، لأنه أدرك أجله المحتوم، وفعلا، عند منتصف الليل، هزّ الفندق انفجار عنيف، وفي الصباح عثر على "فاوست جثة هامدة في غرفته ووجهه ملتفت إلى ظهره إذ يكون الشيطان قتله على هذا النحو[20]، حسب الرؤية الخرافية وقد يكون انتحر بعدما ملّ ويئس من الحياة.

الخاتمة:

تنوعت الشهادات بشأن فاوست سواء في حياته أو بعد موته، وجاءت عموما متقاربة حول سلوكاته وأعاجيبه ومغامراته.. إلا أن هناك مشاكل أثيرت حول مصادر هذه الشهادات منها:

1 – هل هذه الشهادات تتحدث كلها عن الشخص نفسه؟ فإذا كان "ترتهيم" Tritheim يسميه "فاوست الأصغر" Faust Junior أو "جورجيوس سابليكوس" Georgius Sabellicus، ويسمى في سجلات جامعة "هيدلبرج" "يوهن فاوست" Johan Faust، وهناك من يسميه "فاوست الثري" Faust le Fortuné إشارة إلى نجاحاته في السحر والشعوذة؛ كما يسمى أيضا بـــ"فاوست الأكبر" Faust Senior، الأمر الذي أدى في نهاية المطاف إلى طرح بعضهم سؤالا مهما: هل "فاوست هو الاسم الحقيقي أم هو اسم مستعار؟.

2 – لم يصل الباحثون إلى اتفاق مقنع بشأن عمره، بل هناك اتفاق على فترة يكون قد عاش فيها فاوست امتدت من نهاية القرن الخامس عشر إلى منتصف القرن السادس عشر، أي أن فاوست توفى بين الخامسة والأربعين وبين سنّ الستين، ولو أن هناك من يرى بأنه مات في سنّ كبيرة.

3 – أما المشكلة الأخرى، فهي تتعلق بسنة وفاته، ففي عام 1548 تحدث البعض عنه وكأنه قد مات، وفي رسالة تعود إلى 1561 لطبيب سويسري هو "كونراد جسنر" Conrad Gessner يؤكد فيها بأن "فاوست" مات منذ فترة قصيرة جدا، والأرجح إنه توفى بعد سنة 1540[21].

واضح من هذا العرض أن "فاوست" استقطب اهتمام الكثير من كبار رجال الفكر والأدب والدين والعلم. وفرض نفسه كشخصية خرافية خيالية في بداية الأمر. إنها شخصية غامضة، أثارت غضب واستياء الجميع لخروجها عن المألوف، ونالت إعجاب المتحمسين والفضوليين، في انتظار أن تدق ساعة الأدب العظيم في ألمانيا بعد القرن السادس عشر. مارس الطب وعالج المرضى وطرد الجان وتنبأ بالمستقبل، وعرف المرأة من باب الشهوة إلى أن بثت فيه حبا هدّأ من هيجانه وتمرده. وهي موضوعات ثرية تستحق الوقوف عندها مليا. وحاولت قلة أن تتعاطف مع "فاوست" والتخفيف من روعه، إلا أن هناك أمرا خطيرا حال دون غفران الناس له، ألا وهو تحالفه مع الشيطان، وليس بوسعنا إلا أن نردد ((إن "فاوست" إنسان يرفض الكون كما هو، من غير أن يتقبل ضرورة الخلاص منه، وسبب هذا التناقض يعود إلى تشوق الإنسان العارم للحقيقة المطلقة، وضعفه للوصول إلى هذه الحقيقة. ومن ثم عجزه عن فهم وقائع التمرد ورغبته الجارفة للتحطيم))[22]. هكذا أصبح "فاوست" مادة فكرية متنوعة تنهل منها مختلف الآداب بلغاتها المختلفة ومراحلها المتعاقبة.

الهوامش والمراجع :

1 – حافظ الجمالي، صورة الحياة لدى مالرو، مجلة المعرفة، عدد 179، 1977، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ص88.

2 – Sainte Beuve, Chateaubriand et son groupe littéraire, 2 volumes, Paris 1872, Tome 1, P161, 162.

3 – انظر أ. د. عبد الغفار مكاوي، البلد البعيد، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، د.ت، د.ط، ص43.

BANQUIS Geneviève, Faust à travers quatre siècles, éditions Montaigne, Paris, 1955, P11.

4 – المرجع نفسه، ص11 و12.

5 – المرجع نفسه، ص12.

6 – جيته، فاوست، الجزء الأول، المقدمة، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي، وزارة الإعلام، الكويت، 1989، د.ط، ص14.

7 – BANQUIS Geneviève, Faust a travers quatre siècles, P12.

8 – المرجع السابق، ص13.

9 – جيته، فاوست، المقدمة ترجمة عبد الرحمن بدوي، ص.16

10 – د. عز الدين إسماعيل، قضايا الإنسان في الأدب المسرحي المعاصر؛ دراسة مقارنة، دار الفكر العربي، 1980، د.ط، ص142.

11 – Geneviève Banquis, Faust a travers quatre siècles, P12-13

12 – المرجع السابق، ص13 و14.

13 – جيته، فاوست، الجزء الأول، المقدمة، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي، ص20.

14 – نفسه، ص16.

15 – جينه، آلام فارتر، ترجمة عادل موسى عبد العزيز، مركز شدوان، 1999، ط1، ص37.

16 – د. عبد الغفار مكاوي، البلد البعيد، ص42.

17 – Geneviève Banquis, Faust a travers quatre siècles, P15

18 – د. عبد الرحمن بدوي، الموت والعبقرية، وكالة المطبوعات، دار القلم، بيروت، لبنان، الكويت، د.ط، د.ت، ص109.

19– جون كروكشانك، ألبير كامي وأدب التمرد، ترجمة وتعليق جلال العشري، د.ط، د.ت، ص7.

20- انظر جيته، فاوست، الجزء الأول، المقدمة، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي، ص19. وانظر كذلك: Geneviève Banquis, Faust a travers quatre siècles, P14

21- انظر المرجعين السابقين، ص23، وص19.

22- يوسف عبد المسيح ثروت، دراسات في المسرح المعاصر، منشورات مكتبة النهضة، بيروت، بغداد، الطبعة الأولى، 1972، ص38.